

من ذاكرة الثقافة المصرية.. "إسرائيل ولفنسون"

د. محمد صابر عرب

لم يعرف العرب الكراهية لأي من الديانتين السماويتين (المسيحية واليهودية)، إلا حينما اختلط الدين بالسياسة، ووظف الدين لتحقيق طموحات سياسية، حدث ذلك زمن الحروب الصليبية حينما جاء الأوروبيون لغزو بلاد العرب، وقتل وتشريد شعوبها، وحدث ذلك حينما نزع اليهود من كل بلاد الدنيا لكي يقيموا لهم وطنًا في فلسطين العربية على حساب أهلها الحقيقيين، ومنذ هذا التاريخ (١٩٤٨) شعر العرب جميعًا بهول المأساة ومرارة الهزيمة.

لقد كان اليهود يعيشون في كثير من الأقطار العربية قبل مأساة فلسطين كجماعات لها كامل حقوقها السياسية والاجتماعية والدينية، ولعل الدكتور "إسرائيل ولفنسون" يعد مثالاً عملياً على واقع اليهود في بلاد العرب، فلقد عاش في القاهرة وتعلم في مدارسها والتحق بالجامعة المصرية عقب الحرب العالمية الأولى، لدراسة الآداب العربية، وارتبط ارتباطاً وثيقاً بأستاذين قديرين، أولهما: الشيخ عبد الوهاب النجار، وثانيهما: الدكتور طه حسين، الذي أشرف

على رسالته للدكتوراه تحت عنوان: "تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية
وصدر الإسلام"، ونال شهادته سنة ١٩٢٦م، ووافقت لجنة التأليف والترجمة
والنشر في مصر على طبع الرسالة باعتبارها عملاً علمياً فريداً يستحق
القراءة.

والدكتور "إسرائيل ولفنسون" ولد ونشأ وتعلم في القاهرة، وكان يتقن
غالبية اللغات الأوروبية الحديثة؛ إضافة إلى اللغات السامية. وقد أعد الدكتور طه
حسين، تقديمًا للكتاب أشاد فيه بالكتاب وبمؤلفه الذي يمتلك معارف واسعة عن
كل ما يتصل باليهود في عصور السيطرة اليونانية والرومانية على العالم
القديم.

لقد تناول "ولفنسون" علاقة الرسول ع بيهود يثرب، وخصوصاً في
البدايات الأولى حيث لم تستمر الخصومة طويلاً بين الرسول ع، وبينهم،
وخصوصاً بعد أن راحوا ينظرون بعيون الإكبار والاحترام إلى جيوش المسلمين
التي راحت تتدفق كالسيل نحو كل مكان يمكن أن تصل إليه، وقد تضاعف
احترام اليهود للمسلمين بعد أن قضوا على سلطة الدولة الرومية؛ تلك الدولة
التي امتلأ تاريخها بحوادث الظلم والعسف وإراقة الدماء، لدرجة أن اليهود في
العراق كانوا يخرجون لاستقبال جيوش المسلمين بالحفاوة والتقدير، فقد كانوا

يؤثرونهم على غيرهم، إذ يرون فيهم إيماناً بموسى وإبراهيم. ثم تضاعفت هذه الروابط وازدادت متانة مع امتداد الزمن لدرجة أن دخل اليهود في جيوش المسلمين ليقاتلوا معهم في بلاد الأندلس.

لقد أشاد المؤلف "إسرائيل ولفنسون" بسياسة المسلمين الذين أنقذوا آلافاً من اليهود كانوا منتشرين في أقاليم الدولة الرومانية، وكانوا يقاسون ألواناً شتى من العذاب؛ إضافة إلى أن اتصال اليهود بالمسلمين في الأقاليم الإسلامية كان سبباً في نهضة فكرية عظيمة عند اليهود، تركت آثارها في تاريخ الآداب العبرية.

لقد أشار الدكتور طه حسين -وهو يقدم هذا الكتاب- إلى أن إقامة اليهود في بلاد العرب قد تركت أثراً قوياً على الحياة العقلية والأدبية في الجزيرة العربية قبل الإسلام، وهو رأي في حاجة إلى دراسة وتحقيق، مع تقديرنا لرأي طه حسين الذي أشاد بالكتاب وبمؤلفه في فترة تاريخية كان الأستاذ في بداياته الأولى، وكان منشغلاً كثيراً بقضية المنهج والميل إلى التجريب، وتناول القضايا الصادمة في الأدب والتاريخ، وكان كتابه الشهير: "الشعر الجاهلي" نموذجاً لمثل هذه الدراسات.

أعتقد أن قدرًا من التهويل عن أثر اليهود في حياة العرب الفكرية قبل الإسلام قد رُوِّجَ له المستشرقون، وخصوصاً وأن درجة إمامهم بالثقافة العربية كان أقل كثيراً من معرفتهم بمناهج البحث الحديثة؛ لذا وقعوا في كثير من الأخطاء التي لم يكن منها بُد -على حد رأي طه حسين-

ويشير طه حسين، إلى أهمية هذا الكتاب من عدة جوانب:

فالباحث قد وفق نحو تحقيق أشياء علمية لم تكن قد حققت من قبل؛ وخصوصاً فيما يتعلق بآراء المستشرقين حول قضايا كانت غامضة لم تدرس من قبل، كما وفق في عرض تاريخ اليهود في البلاد العربية قبل الإسلام عرضاً علمياً، أدبياً، في كتاب كانت المكتبة العربية في حاجة إليه، وفي نهاية التقديم قدّم طه حسين نصيحة علمية لهذا الشاب اليهودي حيث طالبه بالعناية بالعلاقة الفكرية والثقافية بين العرب واليهود بعد الإسلام، كما عنى بها قبل الإسلام، بهدف الوصول إلى الحقيقة العلمية التي لا تعرف ممالأة ولا مشايعة.

لعل تقديم أطروحة دكتوراه عن موضوع شائك كهذا إلى الجامعة المصرية في عشرينات القرن الماضي، ومن شخص يهودي وتحت إشراف طه حسين وبغناية وإرشاد العالم الكبير الشيخ عبد الوهاب النجار، يعد نموذجاً

رائعاً لما كانت عليه الجامعة المصرية التي لم تكن تستهدف إلا الحقيقة العلمية فقط، وفي مجتمع كان يساوي بين الجميع بصرف النظر عن الدين أو العرق.

وأعتقد أن هذا الكتاب بما تضمنه من آراء وملاحظات في حاجة ملحة إلى إعادة النظر من جوانب عديدة، فهو يعتقد أن طور سيناء وأطراف الجزيرة العربية -من جهة الشمال- كانوا بمثابة قنطرة طبيعية بين بلاد العرب وبين فلسطين -موطن بني إسرائيل، على حد قول "ولفسون"- مما أحدث تأثيراً شديداً في العرب وبني إسرائيل معاً، وهو كلام يستوجب المناقشة؛ وخصوصاً فيما يتعلق بفلسطين التي أكد جازماً أنها كانت دائماً موطن بني إسرائيل.

لقد راح الرجل وبدهاء شديد يسوق العديد من المعلومات التي استند فيها إلى ما ورد في كتب العهد القديم، أو إلى آراء بعض المستشرقين، أو اعتماداً على بعض المصادر الأدبية، وهي آراء لا يمكن أن يكون قد أوردها إلا بهدف التدليل على الوجود المتواصل لبني إسرائيل في فلسطين التي اعتبرها الوطن التاريخي لليهود، من قبيل أن اليهود قد زاد عددهم في فلسطين في بعض الحقب التاريخية زيادة مضطردة جعلت البلاد تضيق بهم، معتقداً أن عددهم قد وصل في بعض الأحيان إلى أربعة ملايين، مما اضطر بعضهم إلى الهجرة إلى مصر والعراق والجزيرة العربية.

الكتاب في مجمله لم يحظ بعناية الدارسين؛ لكنه في حاجة إلى إعادة تحقيق وبحث ودراسة، نظراً لما ورد فيه من معلومات خطيرة، أعتقد أنها لم تكن خافية على أستاذ في حجم طه حسين؛ الذي كان يعلي من شأن البحث العلمي، بهدف تعظيم الحقيقة العلمية على أية قضايا سياسية، وقد ترك الباحث يقول ما يريد، لعله أراد أن يفتح للقارئ مجالات للبحث العلمي كانت موصدة من قبل. مع ملاحظة أن "إسرائيل ولفنسون" قد عمل بعد حصوله على الدكتوراه أستاذاً للغات السامية بكلية دار العلوم، كما ألف كتاباً مهماً نشر في مصر عام ١٩٢٩، تحت عنوان: "تاريخ اللغات السامية"، وكتاباً آخر كتب مقدمته العالم الشهير الشيخ مصطفى عبد الرزاق، تحت عنوان: "موسى بن ميمون، حياته وصفاته"

أعتقد أن ما قدمه هذا الباحث اليهودي في حاجة إلى إعادة تحقيق ودراسة سواء من حيث النتائج التي توصل إليها، أو من حيث المصادر التي اعتمد عليها، سواء أكانت مصادر أدبية؛ أو تاريخية.

وإذا كانت ثمة ملحوظة يمكن التأكيد عليها في نهاية هذا المقال فهي: أن اليهود قبل قيام دولة إسرائيل كانوا يعيشون في كثير من الأقطار العربية لهم نفس الحقوق، وعليهم نفس الواجبات، لكن أوربا قد جنت عليهم حينما أحالت

مشروعهم إلى مشروع سياسي استهدف قتل الفلسطينيين وتشريدهم من بلادهم
وزرع وطن خاص باليهود في أرض فلسطين العربية، التي كانت قبل قيام
الدولة اليهودية نموذجاً للتسامح بين كل الديانات والأعراق.

د. محمد صابر عرب